الإشارات الحسية و النسق اللغوي دراسة في علاقة الاتساق

د. منال مبطي حامد المسعودي
أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى-مكة المكرمة
المملكة العربية السعودية

Linguistic principles between fundamentalists and rhetoricians, An approach to the curriculum

Dr. Manal Mbty Hammed Al-Masoudi
Assistant Professor - College of Arabic Language,
Umm Al-Qura University – Makkah

المستخلص

الإشارة أحد روافد الإبانة، وسبب في تثقيف القول وإحكامه، ولا ينكر مواقعها بلاغي. ولم نجد دراسة مفصلة في كتب البلاغة عنها أو عن وظائفها البيانية سوى بعض التنبيهات التي يمكن توظيفها في إثراء هذا الجانب وتحريكه بملاحظة الشواهد التي وردت فيها إشارات فننظر كيف استعان المتكلم بها لأداء ما في نفسه من معانٍ ودلالاتٍ، ومدى قدرة هذه الإشارات على تشكيل المعنى، وإحداث الأثر الانفعالي في المخاطب.

وقد استعنت للامتداد بهذا الجانب من الدرس بملاحظة ما ورد في حقول التراث الإسلامي في علم الأصول وعلم الحديث من توظيف للبيان بالفعل الخارجي في ضبط دلالة الأحكام والاستدلال بها على تحديد المقاصد نظرًا لندرة النصوص في كتب البلاغيين.

الكلمات المفتاحية: علاقات – إشارة – لغة – دلالة.

Abstract

The reference is one of the tributaries of the statement and a reason for educating the saying and its rulings, and it does not deny its rhetorical position, and we did not find a detailed study in the books of rhetoric about it and its rhetorical functions except for the warnings that can be employed in enriching this aspect and moving it by noticing the evidence in which there are references, so we look at how the speaker used them to perform What are the meanings and connotations in themselves, and the extent of the ability of these signs to form the meaning, and to create an emotional effect. I sought to extend this aspect of the lesson by observing what was mentioned in the fields of Islamic heritage: in the science of origins, and the hadith from employing the statement with the external verb in controlling the significance of the rulings and inferring them to determine the purposes due to the scarcity of texts in the books of the rhetoricians.

Key words: Relations, signs, language, significance.

المقدمة

الحمد لله الذي أنطق الإنسان، وعلمه البيان، فصرف أفنانه، واستوفى أركانه، أوجز فأتم، وسكت فأبان. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد:

فقد أنشأ البيان نشاطًا اجتماعيًا فرضه الواقع الإنساني، وحاجة الإنسان للتواصل مع غيره وإظهار ما في نفسه من معان مختلفة وأفكار مكنونة لا يهتك عن سترها إلا بوسائل تنقلها مع عالم الستر والخفاء إلى التجلي والوضوح، وحتى يبلغ الفهم والإفهام اتخذ مسالك متنوعة لتستوعب ما تختلجه النفس من معان وأفكار وخواطر تكشف عنها، وتصور حقائقها الغائبة فتجعل منها واقعًا مشاهدًا قريبًا من الأذهان.

فلم يقتصر على صورة واحدة نظرًا لامتداد المعاني في النفس وتنوع معطياتها فتنوعت –تبعًا لذلك–طرق الإبانة عنها، فكان لكل صنف منها ماهية خاصة وكيفية تضبط حركة المعنى في النفس، وتدل على جميع جهاته، وقد حصر علماء البيان هذه الأصناف في خمسة طرق وهي: "اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبه" .[1]

وكلٌ صنف من هذه الأصناف يؤدي صورًا وخصوصيات مختلفَة في الإبانة والتأثير، فهي وإن اتفقت في الإبانة عن المعاني المجملة أي الصورة الكلية للمعاني، فإنها تختلفُ في التفاصيل، فلكل منها فائدة ودلالة ليست في الأخرى.

وطرق الإبانة تلتقي في وجوه عامة تجمعها، وتختلف بمزايا يختص بها كل نوع، وقد أوجز الجاحظ المزايا العامة والخاصة لطرق الإبانة الخمسة بقوله: "ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقهما في التفسير، وعن أجناسها

وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوًا بهرجًا، وساقطًا مطرحًا" .[2]

وهذا النص على إيجازه يحدد صورة كل نوع ووظيفته التي يقوم بها، فاللفظ والإشارة والخط والعقد والنصبة لكل منها صورة وقالب مختلف وسمات شكلية تميزه عن غيره، ووصْفُه لذلك بالصورة والحلية لا يعد وصفًا لظاهر تلك الأنواع، أما الوظيفة فإن هذه الأصناف الخمسة تلتقي في أصول البيان العامة وهي: الكشف عن حقائق المعاني وأجناسها وطبقاتها، وتفصيل المجمل والتخصيص والتعميم، والكشف عن ضمير صاحب البيان في تعاطيه مع المعاني من حيث أريحيته لبعض وامتعاضه من الأخر، إذن هذه الأصناف تختلف في الصورة وتلتقي في الوظيفة، والتقاؤها في الوظيفة جعل الجاحظ يقرر مبدأ المشاركة والإنابة بين بعض طرق البيان فـ "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ" .[3]

وقال أيضًا: "وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان" [4]، ورغم تنوع طرق الإبانة فإننا لا نجد دراسات تبحث في آلياتها وفوائدها وأثرها في المعاني، ولم يقف البلاغيون إلا على نوع واحد منها وهو الإبانة باللفظ وأولوه عناية كبيرة، فجاءت مباحثهم ودراساتهم مستقصية لأحواله إفرادًا وتركيبًا، ومتتبعة للمسالك التي أتقنها البلغاء والتي تكتسب بها اللغة تنوعًا وحسنًا في الأداء مع ثراء الدلالة واتساعها.

أما الدلالة على المعاني بغير اللفظ فلا نجد إلا بعض التنبيهات وخاصة ما ذكره الجاحظ وابن رشيق، وهي صفحات محدودة تفتح الباب حول دراسة الأنواع الأخرى وخاصة الإبانة "بالإشارة"، فقد أطال القول فيها الجاحظ ونبه على حسنها بل تفوقها على اللفظ في بعض المواضع حيث قال: "وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتقتل والتثني، واستدعاء الشهوة،

وغير ذلك من الأمور" [5]، فالإشارة لا تخلو من مزية، فهي تورث الكلام حسنًا إذا جاءت مصاحبة له، وبها يكون تمام المعنى مع مالها من تفرد في الفضل لا يتأتى باللفظ وهو الدل والتثني والشكل، وقد برهن الجاحظ على أثرها في الكلام بما روي عن أبي شمر الذي عُرف عنه بسكون الجوارح في خطبه ومحاجاته فكان "إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخر وكان يقول ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره" .[6]

فلما اجتمع مع إبراهيم بن سيار والنظام عند أيوب بن جعفر وتحاجَا وأكثر عليه حتى اضطره إبراهيم إلى الزيادة في المسألة فحرك أبو شمر يديه وحل حبوته، وهذا الموقف صرف أيوب بن جعفر عن رأي أبي شمر في أن الاستعانة بغير المنطق يعيب صاحبه إلى استحسان مجيء الإشارة معونة للفظ .[7]

ويتفق ابن رشيق مع الجاحظ في أن البيان بالإشارة لا يعد حشوًا ولا يخل بفصاحة المتكلم بل يزيد كلامه حسنًا ويكسبه تثقيفًا، فرد القول بأن الاستعانة بالإشارات معيبة بما ورد في كلام الفصحاء والشعراء فقد جاءت في مواضع عند أبي نواس حيث قال [8]:

قال إبراهيم بالما لـ كذا شرقًا وغربًا

كما جاءت في كلام سيد الفصحاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولا أحد أبعد في كلامه عن الحشو والتكليف منه –عليه السلام– وقد روي عنه أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: "وَكَيْفَ بِكَ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَمَوَاثِيقُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا، وَخَالَفَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ". [9]

وعقب على موقعها في كلام أبي نواس بقوله: "ولم يأت بها أبو نواس حشوًا ولكن شطارة وعبثًا بالكلام، وإن شئت قلت بيانًا وتثقيفًا" .[10]

ومن مجموع هذه النصوص يتضح أن الإشارة أحد روافد الإبانة وسبب في تثقيف القول وإحكامه، ولا ينكر مواقعها بلاغي، وإن لم نجد دراسة مفصلة في كتب البلاغة عنها وعن وظائفها البيانية سوى بعض التنبيهات التي يمكن توظيفها في إثراء هذا الجانب وتحريكه بملاحظة الشواهد التي وردت فيها إشارات، فننظر كيف استعان المتكلمُ بها لأداء ما في نفسه من معان ودلالات، ومدى قدرة هذه الإشارات على تشكيل المعنى، وإحداث الأثر الانفعالي في المخاطب.

وقد استعنتُ للامتداد بهذا الجانب من الدرس بملاحظة ما ورد في حقول التراث الإسلامي: في علم الأصول، والحديث من توظيف للبيان بالفعل الخارجي في ضبط دلالة الأحكام والاستدلال بها على تحديد المقاصد نظرًا لندرة النصوص في كتب البلاغيين.

المبحث الأول:

الإشارة أنواعها ووظيفتها في مدونة التراث العربي :

وقبل أن نفصل القول في بلاغة البيان بالإشارة ينبغي أن نميز نوعين من الإشارة وهما:

الإشارة باللفظ، والإشارة الحركية بأعضاء الجسد أو الهيئة، والنوع الثاني لا يدخل في المنطوق بل أحوال تصحب القول فتحدث فيه تأثيرًا وتكسبه خصوصية، أما الإشارة باللفظ فهي إيماءات وإيحاءات تتولد من التركيب وتستكن خلف ظاهر اللفظ، وفائدتها الاختصار والتلميح لمعان لا يستوعبها التفصيل، ولم تستقل الإشارة في مسلك أسلوبي

محدد؛ لأنها تدخل في سائر ألوان البلاغة ولا يكاد يخلو بليغ الكلام منها، وقد عقد ابن رشيق بابًا للإشارة حاول فيه أن يحصي أنواعها فذكر لها تسعة أنواع وهي الكناية والتعريض والحذف والرمز واللغز واللحن والتورية والمحاجاة والإشارات المصحوبة للكلام .[11]

ومدار بحثنا على الإشارات المصحوبة أو الفعل الذي يدرك بالمشاهدة، وغالبًا ما تكون عاضدة للبيان القولي فتقوي دلالته، وتعمل فيه عمل الإفصاح والتبيين، يقول الجاحظ: "فأما الإشارة فباليد والرأس، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرًا ومانعًا رادعًا، يكون وعيدًا وتحذيرًا. والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس" [12]، لذلك عد الأصوليون البيان بالفعل أقوى أنوع الإبانة؛ لأن فيه مشاهدة [13]، فالكثيرُ من الأحكامِ جاء تقريرهُا وتفضيلها بالفعلِ كالصلاة، لقوله عليه الصلاة والسلام: (صلوا كما رأيتموني أصلي) [14]، والحج كقوله: (خذوا عني مناسككم) [15]، فالفعل فصّل دلالة القولِ التي كانت مجملًة، وزاد فيها ثبوتًا وتأكيدًا.

والإشارةُ مثلهُا مثلُ اللفظِ في كونِها خاضعًة في تغيراتِها الدلاليةِ لتصرفِ المتكلم، لأن الأصل في الإبانِة هو ما ذكرهُ السرخسي من أن ضابط تحديدِ المقاصدِ يكونُ وفق "دلالة من وصفِ المتكلم" .[16]

فكلُ ما يصدرُ عن المتكلمِ من إشارة أو لفظ هو: عبارة عن علامات يقرنُها المتكلمُ بكلامه لتصف ما تختزنه النفسُ من معان وأفكار، فكما أن اللفظ يكتسب خصوصيًة

من تصرفِ المتكلم البليغ فكذلك الإشارةُ تكتسب خصوصيتها من قدرةِ المتكلمِ على إشباع الإشارةِ بما في نفسه من معان وخواطر.

فحقيقة البيان لا تقف عند البحث في المنطوق وما يكتنفه من خصوصيات وتنوع في الأداء، وإنما يمتد إلى كل ما من شأنه أن يحدث تأثيرًا في السامع، فهناك سياقات تكون الإشارة فيها أصح الجهات لتأدية المعنى وإيصاله؛ لذلك قيل: "رب إشارة أبلغ من عبارة" .[17]

فالإشارة تستقل بأداء دلالي يجعل إدراجها في باب البلاغة أمرًا حتميًا لا نتردد فيه؛ لأنها في كثير من مواضعها تتجاوز غاية الإفهام إلى إحداث معان ثانوية، فتتكاثر خصوصيات لا يمكن تأديتها إلا بهذا المسلك، وكثيرًا ما يداخل البليغ بيانه بإشارات تصور المشهد الحركي وتنقل المخاطب من السماع إلى المشاهدة فتفتح للمعقول بابًا من العين كما ذكر عبد القاهر في باب التمثيل. .[18]

وهناك مزيّة أخرى وهي الإيجاز والإيحاء بمعان كثيرة بإشارات محدودة فتوظف طاقات الجسد وأحواله لحكاية المعنى ولو عبر عنها باللفظ لاحتاج المتكلم، إلى ألفاظ كثيرة، وليست تحسن في كل موقع، وإنما هناك ضوابط معتبرة تربو بها فائدة الإشارة لتحوز درجة البلاغة، فـ "لابد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة وحسن البيان مع الاختصار، لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه بأسهل ما يكون فإشارته معدودة من العبث، ولهذا قال هند ابن أبي هالة في وصف رسول الله –صلى عليه وسلم–: (يشير بكفة كلها وإذا تعجب قلبها، وإذا حدث اتصل بها فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه الإيسر)، فوصفه ببلاغة اليد كما وصفه ببلاغة اللسان، يعني أنه يشير بيده في الموضع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة وهذا حذق بمواضع المخاطبات" .[19]

فالإشارة ينبغي أن تكون متناغمة مع المعاني ومشكلة لها وحاكيه لمقاصدها، فإشارته عليه الصلاة والسلام بيده تنوع بتنوع المواضع فتارة يشير بيده كلها، ويتعجب فيقلبها ليشير إلى مخالفة الأمر للمعهود، ويصل بعضها ببعض ليشير إلى تلاحم العبارة مع الإشارة، ويضرب اليمنى بباطن إبهام اليسرى مشيرًا إلى انتهاء العبارة وانقطاع الكلام.

وقد كثرت في الحديث الشريف مما يتطلب دراسة مستقلة لسمت بلاغة الإشارة في كلامه عليه الصلاة والسلام، ومنحى مصاحبتها للبيان القولي، ومن ذلك ما رواه المقداد بن الأسود عن رسول الله ذلك عليه السلام: (تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجِمه العرق إلجامًا، قال: وأشار –رسول الله صلى الله عليه وسلم– بيده إلى فيه" [20]، فالراوي حكى إشارته عليه الصلاة والسلام ولم يكتف بالمنطوق الذي قد يتوهم أنه يغني عن الإشارة فنقلنا إلى المشاهدة، ولها من الأثر في النفوس ما لا تبلغه اللغة، وقد لحظ شراح الحديث النبوي أهمية الإشارة فاستقلت في أبواب خاصة فنراهم يقولون مثلًا: "باب رفع اليدين على المنبر" [21] و"باب الإشارة في الخطبة" .[22]

ولم يخلو منها فصحيح الكلام فوردت في القرآن الكريم وفي الشعر، وجاءت في مواضع متفرقة من القرآن، كما في قوله تعالى في تصوير حال من بلغ به الغيظ مبلغًا عظيمًا بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٩)، وحكاية حال الندامة بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ (سورة الفرقان: ٢٧)، وبقوله: ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ (سورة السجدة: ١٢)، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٩).

ووردت في حرّ الشعر وصاحبت بيانه فزادته ملاحة وبلاغة عجيبة ومن شواهدها قول النابغة :[23]

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقول ابن أبي ربيعة :[24]

فقالت –وعضت بالبنان–فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

وقول الآخر :[25]

العين تُبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانًا

وقد وضع الجاحظ يده على مكمن الخصوصية البيانية في الإشارة ووصفها بقوله: "ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البته" [26]، فإذا كان البيان المنطوق لمحة دالة فالإشارة لمحة من وراء ستر يبالغ في إخفائها حتى لا ينفذ إليها إلا المقصود بها، فهي: رسالة تغلف وتطوى لا يقرأها إلا المرسل إليه وهذا ما لا تستطيعه اللغة، فقوله: "خاصُ الخاصِ" إشارةٌ إلى شدةِ إيغالِ هذه المعاني في الخفاءِ، وأنه لا ينوبُ صنف من أصنافِ البيانِ عن الإشارةِ في تأديتها بنفس الامتداد والتكاثر مع الإيجاز الخاطفِ، فهي تدخلُ في بابِ الكنايةِ، لأن الدَال يستلزم معانٍ وراء الظاهر وهي مرادُ المتكلمِ، وإن كان وجه الخصوصية في الإشارةِ

أخفى منه في الكنايةِ باللفظ، فدلالةُ الإشارة تحمل سمات المعاني التي تمتد بحسب قدرةِ المتلقي على استثارتِها، وتأمل قول الشاعر، وهما لعمر بن أبي ربيعة:

أشارت بطرفِ العين خيفة أهلها إشارة مذعورٍ ولم تتكلم

وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

فأيقنتُ أن الطرف قد قال مرحبا

فنجدُ دلالة "طرف العين" أوحت بمعانٍ ممتدةٍ تشكلت في إطارِ الموقفِ أو النصبةِ المحققةِ لدلالتِه، فأعطتها بعُدًا دلاليًا، فلما قال: "خيفة أهلِها" فتحت دلالة الحبيبِ المتيم؛ لأن إشارة طرفِ العينِ تمتزجُ فيها معاني الخشية والإشفاق، والتحقير وغيرها فجاءت "خيفةُ أهلِها" لتحدد الدلالة وأنها الخشيةُ من أجلِ خيفةِ الأهل، ولم يكن سببُ الخيفةِ سوى كونُه حبيبًا متيمًا، فمكنت الدلالة في موضعِها أحسن تمكين، ثم امتدت بالدلالةِ إلى ما لم تتسع له اللغة من كلمات الترحيب الممتزجة بالسرور فقال: "مرحبًا وأهلًا وسهلًا" ليدلك على ما تحملهُ نفسُها من حب وشغفٍ لا تكفي فيه اللغة، وهذا معنى خاص الخاص، فتجدُ معنى الخصوصيةِ تشكل من دلالة الإشارة فأحدث هيئة جديدًة لطرف العين، وكأن غير المعهودِ يصورُه لك الشاعر في صورةِ الطرف الناطق فيصبح طرفًا عاشقًا مدلهًا، فالإشارات وأوضاع الجسم تحمل رسالة تومي إلى مضامين ومشاعر دفينة في واقع النفس، فاستخدام المتكلم لليدين أثناء المحادثة يضيف معان أخرى، فقد يدل على دقة الكلام، أو وسيلةِ لتأكيد نقاط معينة أو تغيير

لموضوعِ الحوار، أو إشارة إلى التوقف عن الحديث، وكل هذه المعاني تولدت من التغيرات في وضع اليد أو الإشارة بها.

وقد نبه العلماء على مدى الذي تبلغه الإشارة في إعانةِ اللفظ على التبيين والإظهار لما تحمله من قوة الأداءِ، فهي تجعل المعاني في صورةِ المحسوس المشاهد، لذلك عدّ الجاحظُ "الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه" .[27]

فالإشارة في سياقِ القولِ لها وظيفة بيانية لا ينبغي للدارسِ الحصيفِ إغفال معطياتها؛ لأن "حسن الإشارةِ باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسانِ" .[28]

أي أن كمال المعنى لا يكون إلا بالالتفات إلى موقعِ الإشارةِ في اللغةِ، وما تحدثه فيها من خصوصياتٍ بيانيةٍ ومعانٍ ثانوية تشفّعُ بها المعاني الأصيلةَ للكلام.

فتأتي في الكلام أو مصاحبة له لأغراض وفوائد، وتؤثر في بناء المعنى وتشكيله فتكون مؤكدة له، أو تفصيلًا، أو تتضمن زيادة بيان، وتارة تفيد التشبيه، وتجسيد المعاني وإبرازها في صورة المشاهد المحسوس، ومن شواهد ذلك ما ذكرناه سابقًا من حديثه عليه الصلاة والسلام في أحوال الخلق يوم القيامة :" تدنى الشمس من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه" [29]، فقوله: "يلجمه" أفادت وصول العرق إلى الفم؛ لأن يلجم من ألجم الدابة أي ألبسها اللجام، وهو ما يوضع من الخدين إلى صفعي العنق، فاللفظ فيه إيحاء بالمعنى المراد لكن البيان النبوي لم يكتف بدلالة اللفظ بل أردفه بالإشارة "رفع يده إلى فيه"، ووقعت الإشارة بعد اكتمال العبارة لتقرر ذلك الإيحاء وتؤكده بالتصريح، وفيه عناية بهذا

المقطع من الكلام لذلك توافرت العبارة والإشارة على إبرازه، بينما نجد التقسيم ما قبلها كالتالي:" منهم من يصل إلى كعبيه" و"منهم من يصل إلى ركبتيه" و"منهم من يصل إلى حقويه" متشابه البناء تتدرج فيه أحوال الناس وقت دنو الشمس يوم القيامة، فلما وصل الأمر ذروته وبلغ الموقف أشده اختلف النسق فجاء "إلجامًا" ثم الإشارة إلى فيه ليحرك رهبة النفوس ويزيد في تهويل الموقف بتصوير المشهد بالإشارة لتحقيقه وتوكيده.

ومن الإشارة ما يأتي لزيادة بيان على العبارة نحو ما رواه المهلب –رضي الله عنه– عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى" [30]، فالإشارة جزء من الجملة حيث وقعت موقع المشبه به فنقلت المعنى وهو المدة الزمنية بين بعثته –عليه السلام– ومجيء الساعة إلى عالم الحس والعيان وهو المسافة التي تراها العين بين السبابة والوسطى، مع زيادة بيان المقدار الذي لا يمكن للعبارة أن تحيط به؛ لأنه من الأمور الغيبية التي اختص الله بعلمها، لكن قاربته الإشارة.

وأثارت العلاقة بينهما معان أخرى وهي شدة الانضمام وأنه ليس بينه –صلى الله عليه وسلم– وبين القيامة نبي فهي التي تليه كما تلي السبابة الوسطى، وأيضًا فيه إشارة إلى قلة المدة الزمنية بين بعثته وبين الساعة فعرّفت بقربها [31]، فكانت أقوى في هذا الموضع من الكلام.

فالمتكلم حينما يُداخلُ اللغة بالإشارةِ يقصد بذلك الحفاوة بالمعنى والمبالغة في تصويره [32]، وكأن الإشارة مسلك أسلوبي ينبه على المقاطع التي هي موضع عناية المتكلم فيضيف إليها كل الملابسات التي من شأنها أن تحدث التأثير الكامل الذي يجب أن تحدثَه هذه الفكرة.

ويمتدُ تأثيرُ هذه المصاحباتِ التي تقترن بالكلام إلى إحداث معانٍ إضافية تزيد في المعنى الأصلي أو تبتعد بمسافات فتكون دلالًة مستقلة.

ونستدل على ما تضيفه الإشارة من زيادة فائدة على اللغة بقول الشاطبي: "فالقول بيان، والفعل شاهد له، ومصدق أو مخصص أو مقيد، وبالجملة عاضد للقول حسبما قُصد بذلك القول ورافع لاحتمالات فيه تعترض وجهَ الفهم" .[33]

أي أن هذه المصاحبات غير اللغوية تسهم في تشكيلِ المعنى وبنائِه فتفضل ما أجملته اللغة، أو تقرر أو ترجح بعضَ المعاني دونَ بعض فتصبح بهذا بيانًا يعاضد القول.

ومن شواهدِ هذا الباب قول عبدِالله بن عمرو: "تخلّف النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– في سَفْرةٍ سافرناها، فأدركنَا وقد أرهقتنا الصلاةُ ونحن نتوضأُ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوتهِ "ويلٌ للأعقابِ من النارِ" [34]، فقولهُ: "فنادى بأعلى صوته" حكاية لحالِ الرسولِ –صلى الله عليه وسلم– أثناء تعليمه للصحابة استدل بها العلماء على جواز رفع الصوت بالعلم" [35]، فأفادتْ التخصيصَ لعموم الأمر بغض الصوت في قَوْله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ (سورة لقمان: آية ١٩).

المبحث الثاني :

مستويات التعالق بين الإشارة واللغة :

تتخذ العلاقة بين اللغة والإشارة ثلاثة مستويات وهي:

١. اللغة في سياق الإشارة.
٢. الإشارة في النسقِ اللغوي.
٣. الإشارة جزء من بناء الكلام.

وسنقف بالتفصيل عند كل مستوى.

أولًا: اللغة في سياق الإشارة:

وأقصد به الأجواء المحيطة بالكلام وما يقترن به من إشارات وأحوال يلحظها المخاطب، ومدى امتداد دلالة هذه المصاحبات في تشكيل الدلالة اللغوية، وتحوير دلالة الوضع اللغوي.

وقد كان لهذا الإحساس بتأثير الملابسات الخارجية على البيانِ اللغوي، وأنَ هناك أسرارًا وخصوصيات تحدثها هذه الملابسات المحيطة بالكلام، كان له أثر بالغ المدى في جعل المقام بجميع عناصره من موقف ومتكلم ومخاطب جزءًا من فقهِ البيان واستكناه مقاصد النص، فالبلاغة تتناول الملابسات الخارجية من خلال دراسة تأثيرها في الأساليب؛ لأن سياقَ الحال يمثل وسطًا دلاليًا لا يمكن تحديد المعنى دونه، ولا يمكن استيفاء المعاني حقها إلا باعتبار موضعِها من المصاحبات المقترنة بها.

فضبط الكلام وفقَ هيئة المتكلم أثناء كلامه يوضح المقاصد والأغراض، ويكشف أسرار الدلالات، وقد تسنى لعلماء الوضع فأدركوا أوضاعَ اللغة استعمالًا ووجوه

التصرف التي تختلف باختلاف الأحوال المقترنة بها، ولهذا امتازت طبقة ابن أبي إسحاق وأبي عمرو بن العلاء بمعرفة الفروقِ في اللغة نتيجةَ المشاهدة للملابسات المحيطة بها أثناء الخطاب [36]، لأن الإشارات والهيئة الخارجية تضبط ما يتفلت من قبضة اللغة من الانفعالات غضبًا وسرورًا، وحركات اليد حيرة وتهديدًا واستهزاء، وكذلك الإشارة بها قربًا وبعدًا، وتحقيرًا وتعظيمًا، إنكار أو دهشة جميعها معان غائبة في اللغة تبعتها هيئة المتكلم وإشاراته وتدل عليها فتضيف على اللغة أسرارًا وفوائد، وتنبه على مقاصد خفية تتشكل بملاحظتها، وغالبًا ما تكون تلك الأسرار نفسية خفية تتأبّى على البيان اللغوي، تحمل أسرارًا وإضافات على اللغة، وقد تنبه ابن جني إلى ما يحدثه غياب هذا المستوى من نقص في فهم اللغة، حيث قال:" فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تعلمه من أحوال العرب ووجوهها وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها، من استخفافها شيئًا أو استقالة، أو تقبله أو إنكاره، والأنس به الاستيحاش منه، والرضا به أو التعجب من قائله وغير ذلك من الأحوال المشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس" .[37]

فالعيان يوجه اللغة تجاه الأغراض والمقاصد التي لا تضبطها اللغة ولا تؤديها الصفة، فكأن المشاهدة تخلق المعاني في نفس السامع وتصورها على الصورة التي هي في نفس قائلها والإخلال بهذا الجانب ينشأ عنه فساد تصور المعنى؛ لأن قرائن الأحوال من إشارة وهيئة تنضم إلى الألفاظ فتغير دلالة الوضع، وتخرج اللفظ من الإقرار إلى الاستهزاء أو الإنكار، ومثل له الفقهاء بجواب من ادعى عليه ألفًا وهو منكر لها فيقول: "وهي وازنة، مع تحريك الرأس بالإنكار أو التعجب أو الضحك مما يدل على التعجب والاستهزاء" .[38]

فاللغة حينما تأتي مقترنة بمصاحبات غير لغوية كالإشارة مثلًا، تتكيف بكيفيات وخصوصيات تنزع الكلام إلى جهة الأغراض التي هي المراد المتكلم، فتحريك الرأس نزع دلالة الإقرار التي دل عليها ظاهر اللفظ "وهي وازنة" إلى جهة أخرى هي أصل المعنى وهي الإنكار، فآل المعنى إلى الاستهزاء.

وتأمل القول الهذلي :[39]

رفوني، وقالوا: يا خويلد لا ترع فقلت –وأنكرت الوجوه–: همُ همُ

فالشاعر هنا يصور ملاطفة قومه وتسكينهم له وهم يحملون في نفوسهم الضغائن والأحقاد فتخالف لغتهم هيئاتهم الخارجية، فتقلب المعنى الوضعي لكلمة "رفوني" التي تحمل السكينة إلى معنى الخوف والهلع والترقب للشر.

فقوله: "وأنكرت الوجوه" إشارة إلى هيئة وجوه القوم وما تحمله من ضغينة ومكر وخداع، وقد نقضت هذه الجملة الإشارية جملة القول السابقة، وما فيها من ملاطفة وود فـ "رفوني" وما تحمله من معنى التسكين والتهدئة، ثم "يا خويلد" وما فيها من التلطف والتحبب بالنداء والتصغير، ثم "لا ترع" وما أثبتته وأكدته لمعنى "رفوني" ولكن هيئة الوجوه قلبت القضية ووشت ببواطن اللفظ وما يكتنزه من خداع ومكر.

ثانيًا: الإشارة في النسق اللغوي:

وقد يمتد تأثير الملابسات الخارجية فتنتقل من كونها نسقًا خارجيًا إلى أن تصبح الجملة الحاكية للإشارة أو الهيئة هي أصل المعنى الذي تولدت منه اللغة فتتشكل اللغة في إطار هذه الجملة مع ما تضيفه اللغة عليها من إيحاءات تعمق دلالتها وتؤكدها.

وقد نبه ابن جني على أن غياب حكاية الأحوال والهيئة الخارجية المصاحبة للكلام تضيع معه المقاصد ويلتبس الفهم ويظل القول مترددًا بين جهات متنوعة مما يتعذر معه القطع بالدلالة واستشهد بقول الشاعر: قلنا لها قفي قالت قاف.

وعلق عليه قائلًا: "لو نقل إلينا هذا الشاعر شيئًا أخر من جملة الحال فقال مع قوله: "قالت قاف" "وأمسكت بزمام بعيرها" أو "عاجته علينا" لكان أبين لما كانوا عليه، وأدل على أنها أرادت: وقفت، أو توقفت، دون أن يظن أنها أرادت "قفي لنا" أي يقول لي "قفي لنا!" متعجبة منه، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها "قاف" إجابة له، لا ردّ لقوله وتعجب منه في قولنا "قفي لنا" .[40]

فقوله "قالت قاف" ترتب على جملة الأمر لها بالوقوف "قفي لنا" دون أن يردفه ببيان هيئتها حتى يتبين مرادها، هل هي تقرير منها أو تعجب أو استفهام، وإنما ظلت الدلالة مترددة بين معان تحتمل في غياب الحال التي كانت عليها أثناء القول فلو ذكر أنها أمسكت بزمام بعيرها أو عاجت عليهم لكانت كاشفة عن مرادها أنها وقفت، أما وقد طرح الهيئة التي كانت عليها فقد فتح باب التأويل والظن للتأويلات.

وهذا فقه للبيان من ابن جني ووظيفة المصاحبات الكلامية وقدرتها على تحويل الدلالة الظنية إلى القطع حتى تكون حالفة على المقاصد التي في النفوس وكاشفة عن الأغراض، وهو بهذا لا يمنع تعدد المعنى، وإنما يبين وظيفة حكاية الأحوال وأن المجني بها في القول لا يضعفه بل يقويه، ويشكله تشكيلًا تعجز عنه العبارة ولا تقوم مقامه.

وهذا الشاهد الشعري دليل على الحاجة إلى بعض المصاحبات وغرسها في الكلام حتى لا يضيع مراد المتكلم في ظنون التأويل المتضاربة، وهذا الإحساس بالقدر الزائد

في المشاهدة تجده عند علماء البلاغة أيضًا. ونستحضر ما ذكره الجرجاني في بيت الأعشى:

إذا كان هادي الفتى في البلا د صدر القناة أطاع الأمير

فمصدر الغموض في دلالة البيت أنك إذا: "أردت الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال عندي، والممتنع في رأي أن تصل إليه إلا من شاهد الأعشى يقوله فاستدل بشاهد الحال، وفحوى الخطاب، فأما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه إلا سماعًا، إذا اقتصر بهم من الإنشاد على هذا البيت المفرد، فإن تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد أن يستدل ببعض الكلام على بعض وإلا فمن يسمع بهذا البيت فيعلم أنه يريد: أن الفتى إذا كبر فاحتاج إلى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه، واستسلم لقائده وذهبت شرته" .[41]

فالوقوف على قطعية الدلالة لا يتأتى إلا بالمشاهدة، ومع هذا تظل دلالة اللغة ورد النص أو البيت إلى سياقات سابقة أو لاحقة مثيرًا دلاليًا للمعنى، وهاديًا إليه، فحكاية الهيئة زيادة بيان في إظهار قوة المعنى وتحريك النفوس بالتصوير والتمثل، وحكاية الإشارة والهيئة ضمن النسق اللغوي تتخذ نمطين:

النمط الأول: يعمد فيه المتكلم إلى وضع هذه المصاحبات داخل العبارة وتقديمها أحيانًا على اللغة، فتأتي في أنف الجملة لتصوير المواقف حتى تكسب المعاني ثراء، وتثير النفوس لما تحمله حكاية الحال من تمثيل الواقع وخلقه باللغة، فتصور الانفعالات في صورة المشاهد الواقع، وكيما يتضح ذلك نذكر قول الشاعر :[42]

تقول –وصكت وجهها بيمينها– أبعلي هذا بالرحى المتقاعس ؟!!

فقوله: "وصكت وجهها بيمينها" جملة حالية تتضمن إشارة عمد المتكلم إلى وضعها في النسق الداخلي للكلام، واتخذت مساحة ممتدة في البيت وقدمها المتكلم وعني بها لأنها الأصل الذي شق مجرى القول بعدها، ولسلطة هذه الجملة على دلالة اللغة فهي جملة تحكي قصة اللفظ ثم تضيف خصوصية زائدة على المعنى الإنكاري الذي دلت عليه اللغة، وهذا المعنى الخاص هو الأثر الانفعالي الذي لا يمكن إيصاله إلا بوصف ما صاحب الكلام من مصاحبات، فلو قال حاكيًا عنها " أبعلي هذا الرحى المتقاعس" من غير صك الوجه، لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها" علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها" .[43]

فلو طرحت حكاية الحال من العبارة لعلم إنكارها من الاستفهام ووصفه بالمتقاعس، ولما لم يرد الشاعر مجرد الإعلام بإنكارها وأراد معان أخرى ومضامين لا تؤديها اللغة غرس الهيئة التي كانت عليها أثناء القول وهي: صك الوجه باليمين، فنبه بذلك على دهشتها وهول الأمر في نفسها واستعظامها له، وجعل ذلك في صدر الجملة للقصد إليه والعناية به ولأن غرضه تشكيل المعنى في إطار موقفها والإشارات المصاحبة للقول التي تعد في هذا البيت عمود يؤسس عليه المعنى ويقوى به.

ومن ذلك قوله –عليه الصلاة والسلام–:"لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما نهيت عنه أو أمرت به، فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه" .[44]

فعمد –عليه الصلاة والسلام– لتصوير الهيئة التي عليها المتكلم للدلالة على التهاون في السنة، والتقاعس عن طلبها وجميع هذه المعاني شكلتها جملة "متكئًا على أريكته" مع ما فيها من إيحاء بمعنى التهاون لتنفير النفوس وإثارة التعجب من هيئة المتهاون بالسنة.

النمط الثاني: هو ما ينقله الرواة من حكاية لما صاحب الكلام من إشارات المتكلم وهيئته أثناء القول، ونستدل بهذا النمط على المدى الذي يبلغه أثر هذه الإشارات في نفس المتلقي لها، وكيف أصبحت عنده جزءًا من تكوين البيان اللغوي الذي لا يمكن إغفاله، لذلك يضعها الراوي وضعًا مقترنًا بالقول الذي أثار هذه الإشارة.

وهذه العناية نجدها بارزة عند رواة الحديث النبوي وحرصهم الشديد على حكاية الحال وما يصاحب الكلام من إشارات ونقلها نقلًا دقيقًا، لما في ذلك من زيادة في الضبط، فهذا المسلك جزء من بلاغة الحديث الذي يجب العناية به وبوضعه موضعه في مدارج الدرس البياني.

وليتضح ذلك تأمل قوله –عليه الصلاة والسلام –: "من كذب علي فليلتمس لجنبه مضجعًا من النار" فجعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول ذلك "ويمسح الأرض بيده" .[45]

فالمعنى المراد من الحديث هو بيان مصير الكاذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأنه في نار جهنم مطمئنًا فيها، ودل على ذلك قوله "فليلتمس" وزادت حكاية الحال المعنى قوة وتقريرًا واتساعًا في الدلالة حتى أصبحت الحال جزءًا من الفهم الدلالي للمعنى، فقوله:" يقول ذلك ويمسح الأرض بيده" فتحت للغائب بابًا من العين، لا نجد ذلك في القول منفردًا دون تصور لهيئته –عليه الصلاة والسلام –وهو يمسح الأرض بيده، لذلك حرص الراوي على نقلها متناسقة مع قوله: "فليلتمس" وكأن هذه الجملة هي التي أحدثت انفعالًا لدى المتكلم فاستعان عليها بما يقررها في الأذهان.

ثم أحدثت الإشارة دلالة أخرى وهي أن الكاذب في بحبوحة من النار، أو دلالة على استقراره في النار كالذي يلتمس موضع جنبه قبل الاضطجاع للاطمئنان على مستقرة.

فالإشارة حينما داخلت النسق اللغوي أصبحت مستوى آخر هو امتداد للغة حيث نجدها تمتاح من دلالة اللفظ وتضيف إليه بيانًا تصويريًا حاكيًا.

لذلك يجب ملاحظة موقع حكاية الراوي للمصاحبات وعلاقتها بالتعبير اللغوي الذي تأتي في سياقه، فتارة تأتي وسط الكلام، وتارة عقيبه، وهي في كل وضع لا تؤدي دلالة اللفظ من كل الجهات، وإنما تقوي دلالة اللفظ الذي اقترنت به وتعمل فيه عمل الإفصاح والتفسير.

وهذا المسلك كثيرًا ما يعتمده البخاري في تصنيفه فيستنبط ما تحمله الإشارات من تنبيهات على معان ثم يرتب عليها فوائد وأحكاماً معينة مثل قول الراوي:" جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقال حمية فرفع إليه رأسه قال – أي الراوي – وما رفع إليه رأسه إلا أنه –أي الرجل– كان قائماً فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل" .[46]

فبنى شراح الحديث على هذه المسألة فوائد استخرجوها من المصاحبات التي اقترنت بالكلام، وهي حكاية الراوي لهيئة الرسول عليه السلام والدقة في ضبطها، حيث قال: رفع رأسه واستدل برفع الرأس على أن الرجل كان قائماً، فتولدت من هذه الحكاية عدة فوائد وهي" أن العالم الجالس إذا سأله قائم لا يعد من باب من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا، بل هو جائز بشرط الأمن من الإعجاب واستحباب إقبال المسؤول على السائل" .[47]

فحكاية الراوي لهيئة الرسول عليه السلام والدقة في ضبطها، حيث قال:" رفع رأسه وما رفع رأسه إلا أنه–أي الرجل كان قائمًا" تولدت من وصف الهيئة التي كان عليها

فوائد وبنى عليها شراح الحديث مسائل استخرجوها من هذه المصاحبات التي اقترنت بالكلام.

ومنه أيضًا ما رواه عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: بينما النبي –صلى الله عليه وسلم– في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة، فمضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يحدّث، فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة" .[48]

وقد لحظ البخاري ما يحمله الجواب من انعكاسات تفسر هيئة الإعراض التي أثارت التردد في نفوس الصحابة، فصنف الحديث تحت باب "من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل" .[49]

فقوله:" وهو مشتغل في حديثه" يفيد أن عناية الرسول –عليه الصلاة والسلام– بإتمام حديثه هو من باب الأمانة لذلك جاء الجواب متصلًا بسياق حكاية حال إعراض عليه – الصلاة والسلام – عن السؤال أثناء حديثه ومترتبًا عليها برابط لغوي وهو "الفاء" فهي داخلة في غرض الحديث ومبينة لمعنى الأمانة بصورة عملية.

ثالثًا: الإشارة جزء من بناء الكلام:

وهذا المسلك يشتد في الارتباط، فنجد المتكلم يبني كلامه على المزج بين اللغة والإشارة، فتصبح الإشارة عنصرًا أساسياً في تشكيل النظم وتوجيه معانيه نحو خصوصيات يؤديها موقع الإشارة من السياق اللغوي، ليس باعتباره قرينة حالية وإنما

باعتباره جزءًا من بناء التركيب البياني، لا يتم الكلام إلا به ولا يتشكل المعنى إلا بالتصوير الذي تحدثه الإشارة.

ويعد هذا مسلكًا من مسالك الاتساع التي يكتسب بها المعنى ثراء، وتعددًا في المعاني مع التنوع في الآداء، حيث تتردد الإبانة بين عناصر مختلفة تعطي للمعنى غموضًا يستثير المتلقي ليحرك المعنى من خلال الارتداد إلى اللغة تارة وإلى الإشارة تارة أخرى، فالمعاني قد تكون غامضة في النفس منبسطة فوق مساحة أوسع من اللغة فيعمد المتكلم إلى التصرف في الدلالات من خلال توزيع وحدات البيان بين اللغة والإشارة وفق كيفيات مخصوصة تضبط الفكرة وتلقي الضوء على المعنى الغائر في النفس.

وليتضح ذلك نذكر قول الرسول –عليه الصلاة والسلام–: "أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئًا" (50)، فالإشارة هنا لم تكن حكاية من الراوي ينقل بها هيئة الرسول أثناء القول، وإنما هي جزء من الكلام ليست واردة للتفسير أو التبيين فموقعها مشبه به أي: جناح مكمل لما قبلها يهيض المعنى إذا قص أو أسقط من العبارة، وقد ورد مثل هذا التشبيه في قوله –عليه الصلاة والسلام– أيضًا: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى" وفي رواية "وضم أصبعيه" وهنا "فرج بينهما شيئًا"، ولهذا أثر في المعنى شكل صورة الارتباط والتجاور وقرب المنزلة لكافل اليتيم من منزلته – عليه السلام – –حال دخول الجنة.

ومثله قوله –عليه الصلاة والسلام– لعبد الله بن عمرو بن العاص: "وكيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأمانتهم، واختلفوا فكانوا هكذا وشبّك بين أصابع يديه" (51)، فشبّك بين أصابع يديه وقعت بيانًا لقوله: "مرجت، فاختلفوا" لتبين تلبيس الناس لأمر الدين في آخر الزمان واضطراب أمانتهم وعودهم، وشدة

التنافر بينهم مما يصعب معه الائتلاف والالتقاء، فكل في طريق وجهة معارضة لجهة الآخر، وإيقاع المعنى بالإشارة له في النفس تأثير لا تبلغه العبارة من حال هؤلاء.

فالإشارة أحدثت ظلالًا دلالية على اللغة استوعبت به ما يكتنزه البناء اللغوي من معانٍ محتملة وأبرزتها في صورة المشاهد المحسوس. وقد أشار ابن رشيق إلى أن الإشارات التي تصحب البناء اللغوي هي من مسالك التثقيف والحذق بصناعة البيان، يقول: "ومن الإشارات مصحوبة، وهي عند أكثرهم معيبة كأنها حشو واستعانة على الكلام، نحو قول أبي نواس:

قال إبراهيم بالما لـ كذا شرقًا وغربًا

وحرّك يديه شرقًا وغربًا ليجعل من الإشارة وسيلة للإبانة عن غرضة لا يمكن تصور المعنى دونها.

إن حكاية الحال في بيت أبي نواس مسلك من مسالك الفصاحة والتثقيف، تتزايد بها بلاغة الكلام لذلك لم يعمد أبو نواس إلى المزاوجة بين اللغة والإشارة، فوظّف الإشارة مسلكًا لغرضه، وبنى كلامه على ذلك وهيأ لها من خلال التصرف في التركيب ولو قصد اللغة لقال: "مال" لدلالتها على الحركة التي يريد ولكنه ثقف كلامه ليمكن موقع الإشارة فقال: "قال" ليجعل من الإشارة جزءًا في بناء التركيب "وناسب لك سلطان الممدوح، لأن الميل يدل على الاضطراب وهو معنى يختل به كمال المدح، فنابت الحركة عن ذلك، ثم أضاف لها سياق القول دلالة أخرى وهي: تصرفه في المال وانقياد المال لأمره غربًا وشرقًا.

وقد جاء أبو نواس بالإشارة في موضع آخر فصنع شعرًا لا قافية له فقال:

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد لمن يحبك :(إشارة قبلة)

فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولي: (إشارة لا لا)

فتنفست ساعَة ثم إني قلت للبغل عند ذلك: (إشارة امش)

قال ابن رشيق: "فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه، وأعطاه الأمين صلة شريفة" .[52]

فتأمل كيف اهتدى إلى صنعة المعنى بالمراوحة بين مسلكين من مسالك الإبانة وهو اللغة والإشارة ونسق بينهما، وجعل الإشارة قفلًا لكلامه، ولم يكن تعجب القوم من هذه الأبيات لغرابة المعنى بل من حسن استجلابه بالإشارة واهتدائه إلى إتمام الكلام بها دون اللغة مما كسى الأسلوب ملاحة فأثار في النفوس دهشة التأتي وروعة التمكين.

ومن خلال ما عرضناه من مستويات العلاقة بين اللغة والإشارة تبين أثرها في تأدية الأغراض والكشف عن المعاني، وقدرتها على التصوير والتشكيل، فتتصور المعاني بصورة الأشخاص، وتريك المسموع وكأنه مشاهد، مع ما يحدثه العلم بالموقف الكلامي من الملاءمة الصوتية بين عناصر اللغة ومقتضيات الأحوال.

فوسائل الإبانة لا تقف عند اللغة بل كل ما يمكن به استجلاب المعنى وإيصاله والكشف عنه يكون بيانًا في ذلك الموضع، وهو أخص الوسائل التي يمكن أن تؤديه، وهذا ليس وسم للغة بالقصور والعجز عن أداء بعض المعاني وإنما يدل على أن

المتكلم يختار الوسائل التي تؤدي مقاصده بدقة وتوصل الخصوصيات التي أراد، ويتمم بها معانيه فيرواح بين البيان باللغة والبيان بالإشارة.

واختياره لنوع الأسلوب ينبغي أن يلتفت إليه في دراسة الكلام وتدرس هذه الظاهرة في الشعر كما درست في الحديث، ويكشف عن بلاغتها وموقعها من الجملة قبلها، وكيفية تنسيقها في نسق العبارة، وأثرها في توليد المعاني وأحوالها مع اللفظ، وغياب هذا المستوى من البحث في الإشارات المصاحبة للكلام والوقوف عند كونها حال خارجية يطابقها الكلام وقرينة وتؤثر في دلالته دون أن تبحث وظيفتها وكيفية إبانتها عن المقاصد وعلاقتها باللغة كمعاضدة لمعانيها ومنتجة لمعان أخرى إضافية لا تتهيأ إلا بها، غياب ذلك يذهب مقاصد سترتها الإشارة مما يخلّ بالدلالة وينقص به بهاؤها وملاحتها.

الخاتمة :

وبعد هذا العرض لمكانة الإشارة في البيان وعلاقتها باللغة نسقا و سياقا فتارة تأتي مقاما خارجيا وتارة تأتي مقاما مقاليا لتؤدي وظائف وتحدث خصوصيات ، ولا غنى لبلاغي عن الالتفات إليها وملاحظة أثرها في الكلام.

و من خلال هذه الدراسة نخلص إلى نتائج وهي كالتالي :

- تكسب الإشارة البيان إيجازا؛ لأنها توظف طاقات الجسد لحكاية المعنى ولو عبر عنه بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة .
- استعمال الاشارة لا يحسن في كل موقع بل هناك ضوابط معتبرة في معتبرة في مداخلتها للكلام .
- ينبغي أن تكون الإشارات الجسدية متناغمة مع المعاني وتدل على مقاصد المتكلم.
- هناك ثلاث مستويات للتعالق بين اللغة والإشارة الجسدية فتارة تأتي اللغة في سياق الإشارة وتارة تكون الإشارة جزء من البناء اللغوي وأخرى تكون فيه الإشارة ممتزجة باللغة .
- العلم بالموقف الخارجي يُحدث ملاءمة صوتية بين عناصر اللغة ومقتضيات الأحوال .
- توصي الدراسة بتتبع الاشارات الجسدية في الشعر أو التي ذكرها الرواة اثناء رواية الشعر وأثرها في بلاغة الكلام وتاويله.

الهوامش

1) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٦/١.
2) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٦/١.
3) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٨/١.
4) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٩/١.
5) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٦/١.
6) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٩١/١.
7) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٩١/١.
8) أبو نواس ٢٠٠٩م:٥١٠/١.
9) الهيثمي: ١٤١٤هـ، ٢٣٩/٧.
10) ابن رشيق د.ت: ٣٠٩/١.
11) ابن رشيق د.ت: ٣٠٢/١.
12) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٨/١.
13) ابن أمير الحاج ١٤١٩هـ: ٨٣/٣.
14) البخاري: ١٤٢٢هـ، ٩/٨.
15) البيهقي: ١٤٢٤هـ، ٢٠٤/٥.
16) ابن أمير الحاج ١٤١٩هـ: ٨٣/٣.
17) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٨/١.
18) الجرجاني: ١٤١٣هـ، ٦٨/١، ٢٦٢/١.
19) ابن أبي الأصبع د.ت: ٢٠٠.
20) مسلم: د.ت، ٢١٩٦/٤.
21) أبو داود: ١٤٣٠هـ، ٣٢٤/٢.
22) النسائي: ١٤٠٦هـ، ١٠٨/٣.
23) النابغة الذبياني: د.ت، ٩٣/١.
24) عمر بن أبي ربيعة: د.ت، ١٠١/١.
25) عمارة بن عقيل: ١٩٧٣م، ٨٢/١.
26) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٨/١.

27) الجاحظ ١٤٠٥هـ: ٧٨/١.
28) ابن رشيق د.ت: ٣٠٩/١.
29) مسلم: د.ت، ٢١٩٦/٤.
30) مسلم: د.ت، ٥٩٢/٢، وأحمد بن حنبل: ١٤٢١هـ، ٢٧١/١٩.
31) ينظر: ابن حجر د.ت: ٤٢٥/١١.
32) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٧/١.
33) الشاطبي: ١٤١٧هـ: ٨٥/٤.
34) البخاري: ١٤٢٢هـ، ٢٢/١، ومسلم: د.ت، ٢١٤/١.
35) ابن حجر د.ت: ١٩١/١.
36) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٦/١.
37) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٦/١.
38) الأسنوي ١٤٠٧هـ: ٢٠٠.
39) البغدادي: ١٤١٨هـ، ٤٤٠/١.
40) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٧/١.
41) الجرجاني د.ت: ٤١٨.
42) المبرد: ١٤١٧هـ، ٢٤/١.
43) ابن جني ١٤٠٦هـ: ٢٤٦/١.
44) الترمذي: ١٣٩٥هـ، ٣٧/٥.
45) الشافعي:١٣٧٠هـ، ١٧/١.
46) ابن حجر د.ت: ١٩٠/١.
47) ابن حجر د.ت: ١٩٠/١.
48) البخاري: ١٤٢٢هـ، ٢١/١.
49) ابن حجر د.ت: ١٩٠/١.
50) البخاري:١٤٢٢هـ، ٥٣/٧.
51) الهيثمي: ١٤١٤هـ، ٢٢٩/٧.
52) ابن رشيق د.ت: ٣١٠/١.

المراجع:

١. القرآن الكريم
٢. ابن أبي الأصبع، زكي الدين المصري. د.ت. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث.
٣. ابن أمير الحاج. ١٤١٩هـ. التقرير والتحبير، ضبطه وصححه: عبد الله محمود عمر. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
٤. ابن جني، أبي الفتح عثمان. ١٤٠٦هـ. الخصائص، تحقيق: محمد النجار. ط٣. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥. ابن حجر، أحمد بن على. د.ت. فتح الباري بشرح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. مصر: المكتبة السلفية.
٦. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني. ١٤٢١هـ. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة.
٧. ابن رشيق، علي بن الحسن القيرواني. د.ت. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: مكتبة دار الجيل.
٨. أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني. ١٤٣٠هـ. سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي. ط١. بيروت: دار الرسالة العالمية.
٩. أبو نواس، أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحكمي المذحجي. ٢٠٠٩م. ديوان أبي نواس، شرح وتحقيق: محمد أنيس مهرات. ط١.سوريا: دار مهرات للعلوم.
١٠. الأسنوي، جمال الدين بن الحسن. ١٤٠٧هـ. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، تحقيق: محمد هيتو. ط٤. بيروت: مؤسسة الرسالة.
١١. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. ١٤٢٢هـ. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط١. بيروت: دار طوق النجاة.

١٢. البغدادي، عبد القادر بن عمر. ١٤١٨هـ. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. ط٤. القاهرة: مكتبة الخانجي.
١٣. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني. ١٤٢٤هـ. السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. ط٣. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٤. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. ١٣٩٥هـ. سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي. ط٢. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
١٥. الجاحظ، عمرو بن بحر. ١٤٠٥هـ. البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون. ط٥. القاهرة: مكتبة الخانجي.
١٦. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. ١٤١٣هـ. دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر. ط٣. جدة: دار المدني.
١٧. الجرجاني، علي بن عبد العزيز. د.ت. الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي. مصر: مطبعة عيسى الحلبي.
١٨. الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي. ١٤١٧هـ. الموافقات، ضبطه: مشهور آل سلمان. ط١. المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان.
١٩. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع. ١٣٧٠هـ. مسند الإمام الشافعي، رتبه على الأبواب الفقهية: محمد عابد السندي، عرف للكتاب وترجم للمؤلف: محمد زاهد بن الحسن الكوثري. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٠. عمارة ابن عقيل، عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ابن عطية. ١٩٧٣م. ديوان عمارة بن عقيل، جمعه وحققه: شاكر العاشور. ط١. بغداد: وزارة الإعلام.
٢١. عمر ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. د.ت. ديوان عمر بن أبي ربيعة" شاعر الحب والجمال"، شرح وتحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف. القاهرة: المكتبة الأزهرية.
٢٢. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. ١٤١٧هـ. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٣. القاهرة: دار الفكر العربي.

٢٣. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. د.ت. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٤. النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن سعد بن ذبيان. د.ت. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٢. بيروت: دار المعارف.
٢٥. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. ١٤٠٦هـ. السنن الصغرى للنسائي. ط٢. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.
٢٦. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان. ١٤١٤هـ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي. القاهرة: مكتبة القدسي.

References:

1. Al-Qur’an al-Karim
2. Ibn Abi al-Usbu', Zaki al-Din al-Misri. n.d. Tahrir al-Tahrir fi Sina'at al-Shi'r wa-al-Nathr wa-Bayan I'jaz al-Qur'an, edited by Hafni Muhammad Sharaf. Cairo: al-Majlis al-A'la lil-Shu'un al-Islamiyya – Lajnat Ihya' al-Turath.
3. Ibn Amir al-Hajj. 1419 H. al-Taqrir wa-al-Tahrir, edited by Abd Allah Mahmud Umar. 1st ed. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
4. Ibn Jinni, Abu al-Fath Uthman. 1406 H. al-Khasa'is, edited by Muhammad al-Najjar. 3rd ed. Egypt: al-Hay'a al-Misriyya al-Amma lil-Kitab.
5. Ibn Hajar, Ahmad ibn Ali. n.d. Fath al-Bari bi-Sharh al-Bukhari, edited by Muhammad Fu'ad Abd al-Baqi. Egypt: al-Maktaba al-Salafiyya.
6. Ibn Hanbal, Abu Abd Allah Ahmad ibn Muhammad ibn Hanbal al-Dhahli al-Shaybani. 1421 H. Musnad al-Imam Ahmad ibn Hanbal, edited by Shu'ayb al-Arna'ut, Adel Murshid, et al., supervised by Abd Allah ibn Abd al-Muhsin al-Turki. 1st ed. Beirut: Mu'assasat al-Risala.

7. Ibn Rashiq, Ali ibn al-Hasan al-Qayrawani. n.d. al-Umda fi Mahasin al-Shi'r wa-Adabihi wa-Naqdihi, edited by Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid. Beirut: Maktabat Dar al-Jil.
8. Abu Dawud, Sulayman ibn al-Ash'ath al-Azdi al-Sijistani. 1430 H. Sunan Abi Dawud, edited by Shu'ayb al-Arna'ut and Muhammad Kamil Qarah Billi. 1st ed. Beirut: Dar al-Risala al-Alamiyya.
9. Abu Nuwas, Abu Ali al-Hasan ibn Hani ibn Abd al-Awwal ibn al-Sabah al-Hakami al-Mudhaji. 2009. Diwan Abi Nuwas, edited by Muhammad Anis Mahrat. 1st ed. Syria: Dar Mahrat lil-Ulum.
10. al-Asnawi, Jamal al-Din ibn al-Hasan. 1407 H. al-Tamhid fi Takhrij al-Furu' ala al-Usul, edited by Muhammad Hitu. 4th ed. Beirut: Mu'assasat al-Risala.
11. al-Bukhari, Muhammad ibn Isma'il Abu Abd Allah al-Bukhari al-Ju'fi. 1422 H. Sahih al-Bukhari, edited by Muhammad Zuhayr ibn Nasir al-Nasir. 1st ed. Beirut: Dar Tuq al-Najat.
12. al-Baghdadi, Abd al-Qadir ibn Umar. 1418 H. Khizanat al-Adab wa-Lub Lubab Lisan al-Arab, edited and explained by Abd al-Salam Muhammad Harun. 4th ed. Cairo: Maktabat al-Khanji.
13. al-Bayhaqi, Abu Bakr Ahmad ibn al-Husayn ibn Ali ibn Musa al-Khusrawjirdi al-Khurasani. 1424 H. al-Sunan al-Kubra, edited by Muhammad Abd al-Qadir Ata. 3rd ed. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
14. al-Tirmidhi, Abu Isa Muhammad ibn Isa ibn Sawrah ibn Musa ibn al-Dahhak. 1395 H. Sunan al-Tirmidhi, edited and commented by Ahmad Muhammad Shakir and Muhammad Fu'ad Abd al-Baqi. 2nd ed. Cairo: Shirkah Maktabat wa-Matba'at Mustafa al-Babi al-Halabi.
15. al-Jahiz, Amr ibn Bahr. 1405 H. al-Bayan wa-al-Tabyin, edited by Abd al-Salam Harun. 5th ed. Cairo: Maktabat al-Khanji.

16. al-Jurjani, Abu Bakr Abd al-Qahir ibn Abd al-Rahman ibn Muhammad. 1413 H. Dala'il al-I'jaz fi Ilm al-Ma'ani, edited by Mahmoud Muhammad Shakir Abu Fahl. 3rd ed. Jeddah: Dar al-Madani.
17. al-Jurjani, Ali ibn Abd al-Aziz. n.d. al-Wasata bayna al-Mutanabbi wa-Khusumih, edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim and Ali al-Bajawi. Egypt: Matba'at Isa al-Halabi.
18. al-Shatibi, Ibrahim ibn Musa al-Lakhmi. 1417 H. al-Muwafaqat, edited by Mashhur Al-Salman. 1st ed. Saudi Arabia: Dar Ibn Affan.
19. al-Shafi'i, Abu Abd Allah Muhammad ibn Idris ibn al-Abbas ibn Uthman ibn Shafi'. 1370 H. Musnad al-Imam al-Shafi'i, arranged by Muhammad Abid al-Sindi, introduction and biography by Muhammad Zahid ibn al-Hasan al-Kawthari. Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
20. Imarah ibn Aqil, Imarah ibn Aqil ibn Bilal ibn Jarir ibn Atiya. 1973. Diwan Imarah ibn Aqil, compiled and edited by Shakir al-Ashour. 1st ed. Baghdad: Wizarat al-I'lam.
21. Umar ibn Abi Rabi'a, Umar ibn Abd Allah ibn Abi Rabi'a ibn al-Mughira ibn Abd Allah ibn Umar ibn Makhzum. n.d. Diwan Umar ibn Abi Rabi'a "Sha'ir al-Hubb wa-al-Jamal," edited, commented, and annotated by Muhammad Abd al-Mun'im Khafaji and Abd al-Aziz Sharaf. Cairo: al-Maktaba al-Azhariyya.
22. al-Mubarrad, Abu al-Abbas Muhammad ibn Yazid. 1417 H. al-Kamil fi al-Lugha wa-al-Adab, edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. 3rd ed. Cairo: Dar al-Fikr al-Arabi.
23. Muslim, Abu al-Husayn Muslim ibn al-Hajjaj Abu al-Hasan al-Qushayri al-Naysaburi. n.d. Sahih Muslim, edited by Muhammad Fu'ad Abd al-Baqi. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-Arabi.

24. al-Nabigha al-Dhubyani, Ziyad ibn Mu'awiya ibn Sa'd ibn Dhubyan. n.d. Diwan al-Nabigha al-Dhubyani, edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. 2nd ed. Beirut: Dar al-Ma'arif.
25. al-Nasa'i, Abu Abd al-Rahman Ahmad ibn Shu'ayb ibn Ali al-Khurasani. 1406 H. al-Sunan al-Sughra lil-Nasa'i. 2nd ed. Aleppo: Maktab al-Matbu'at al-Islamiyya.
26. al-Haythami, Abu al-Hasan Nur al-Din Ali ibn Abi Bakr ibn Sulayman. 1414 H. Majma' al-Zawa'id wa-Manba' al-Fawa'id, edited by Husam al-Din al-Qudsi. Cairo: Maktabat al-Qudsi.